ترجمة القران، بين الاستحالة والإمكان

سيـداتي ماء العينين*

* مـدرسـة الملك فهد العليا للترجمة- طنجة- المغرب

Translating Qur'an, between impossibility and possibility.

Saed'ati Ma'a Alaynain

عبر الزمن، كثر الحديث عن ترجمات القرآن واختلافاتها بل وتناقضاتها أحيانا. فليس فينا من لم يتبادر إلى ذهنه التساؤل التالي: هل تجوز ترجمة القرآن شرعا ومن الناحية العلمية؟ وهل تصح؟ وإلى أي مدى؟ و، و، و .... وللإجابة كذلك على هذا الإشكال، لابد لنا أن نعرج ولو بعجالة على السياق التاريخي لترجمة القرآن ولابد من تسليط الضوء على دور المستشرقين فيه. هؤلاء الذين انصب اهتمامهم على القرآن والأحاديث ومصادر التشريع والتراث الإسلامي بحكم أنهم قد لعبوا دورا مهما جدا عبر تاريخ ترجمته. والمستشرقون كما ذكر المفكر إدوارد سعيد في كتابه «الإستشراق» (نيويورك نوفمبر 1978 – ص8) «هم كل من يدرس أو يكتب عن الشرق أو يبحث فيه».[1]

ولعل أبرز الأسباب الخطيرة حسب أ. شاكر عالم شوق التي جعلت المترجمين الاستشراقين يلجؤون إلى الترجمة هي إثبات «بشرية القران»[2] عبر إبراز التناقضات فيه. «متغافلين عن أنها «تناقضات ترجمية» وليست قرآنية حيث يقول القرآن صراحة «أفلا يتدبرون القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»[3]. وهدف المستشرقين من ذلك حسب المؤلف هو «الاستخفاف بالمقومات الثقافية والحضارية للإسلام» مستدلا بقول جورج سيل في مستهل مقدمته لترجمة القران للغة الانجليزية:

(1) شوق، شاكر عالم. ترجمة معاني الـقـران الكريم ودور المترجمين فيها. المجلد الرابع. الجامعة الاسلامية العالمية شيتاغونغ. ديسمبر 2007. ص 58

(2) نفسه. ص 68.

(3) القران. سورة النساء. الآية 82.

«أما أن محمدا كان في الحقيقة مؤلف القران والمخترع الرئيسي له فأمر لا يقبل الجدال»[4]

وترجع أسباب الاهتمام بهذا الموضوع كذلك، إلى كثرة الجدل الذي أثاره -كما ذكرنا سابقا- سواء من طرف المشككين فيه أو الباحثين لدرجة أنهم قد حسبوا سوره، وآياته، وأطول الآيات وأقصرها، وكلماته، وأطول الكلمات وأقصرها، وحروفه ودرسوا عناوين السور ودلالاتها العلمية والتاريخية وحتى ترجمته فقد أثارت العديد من القضايا العقائدية والتاريخية واللغوية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن اهتمامنا في هذه الورقة البحثية منصب فيم هو لغوي بحت.

ومن المثير للجدل أن هناك اختلاف بين العلماء أنفسهم حول جواز ترجمة القرآن وتحريمه. وبين المترجمين حول إمكانية ترجمة النصوص المقدسة وعدمها. فثلة من الاثنين (العلماء والتراجم) ترى استحالة ترجمة نظمه وسياقاته اللغوية والإيقاعية الإعجازية. في حين يرى البعض الاخر الاكتفاء بتفسير معانيه باللغات الأجنبية والاقتصار في ذلك على دور الترجمة «الدعوي»[5] -حسب الفيلسوف طه عبد الرحمن- والتعريفي بالإسلام باللغات الأجنبية وهو تبليغ الرسالة السماوية لغير الناطقين بالعربية عملا بالحديث الشريف «بلغوا عني ولو اية».[6]

ومن جانب اخر، فشمولية القران العلمية التي لا تخفى حتى على القارئ العادي جعلت منه موضوعا يستحق الدراسة والتمحيص. فحسب يوسف مروه صاحب كتاب العلوم الطبيعية في القران والفلكية والأحداث الكونية مثل النور والدخان والنجم (...) ومنها ما يحمل أسماء بعض المخلوقات الحية (...) مثل الإنسان، والناس، والشعراء...والنحل والعنكبوت (...) ومنها ما يحمل أسماء شخصيات لعبت أدوارا تاريخية معينة بينها أنبياء وحكماء وملوك مثل آل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ولقمان ومحمد ونوح وطه وسبأ وأخرى تحمل أسماء شعوب وقبائل

شمولية القران العلمية التي لا تخفى حتى على القارئ العادي جعلت منه موضوعا يستحق الدراسة والتمحيص

(4) شوق، شاكر عالم. ترجمة معاني القران الكريم ودور المترجمين فيها. المجلد الرابع. الجامعة الاسلامية العالمية شيتاغونغ. ديسمبر 2007. ص 68.

(5) ع. طه. فقه الفلسفة 1 الفلسفة والترجمة. المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1995، ص 63

(6) الحديث

مثل الروم وقريش. وفي القران آيات بينة واضحة تدل على تجزئة الذرة وغزو الفضاء ونسبية معرفة الانسان (...) وعشر الآيات القرآنية تتعلق بالعلوم الطبيعية (الرياضيات، والفيزياء، والذرة الكيمياء، النسبية، الفلك، المناخيات، المائيات، علم الفضاء، علم الحيوان، علم الزراعة، علم الأحياء، الجغرافيا العامة، علم السلالات البشرية (ص 74-75-76).

وباختلاف هذه المواضيع وتعقيداتها وتلويناتها تصعب معها الترجمة التي تعتبر -كما قد أكد د. محمد الرامي في مداخلته في أحد الندوات العلمية التي عقدتها مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بمدينة طنجة «فن وذوق وجمال. وفي العمق، هي شكل من أشكال التفسير»[7]. وهو الرأي الذي زكاه د. بدي إبنو[8] Beddy Ebnou في نفس الندوة والذي أكد أن «العالم الذي نعيش فيه يحتاج إلى تعدد زوايا الرؤيا للتفسير والتأويل للواقع». وهذا ما يحملنا على طرح أحد التساؤلات المهمة والتي تحاول هذه الورقة الإجابة عنها وهي إلى أي مدى تصح ترجمة القران خاصة أنه حمال للمعاني كما يوصف؟ وإلى أي حد يعتبر النص المترجم «ترجمة» أكثر منه «تفسيرا» بلغة أجنبية؟

فها هو بول ريكور صاحب كتاب Sur La Traduction عن الترجمة (ترجمة حسين خمري 2008) يفرق بين مفهومين هما: الفهم والتفسير. ويقول إنه لا يتحقق الثاني إلا بتحقق الأول. ويؤكد الكاتب أن النص المترجم لا يمكن أن يكون الأصل ويضرب مثالا عن الشعر وترجمته في هذا السياق مؤكدا أنه «من خلال هذا التنافر المركب، يستمد النص الأجنبي مقاومته للترجمة وبهذا المعنى يعلن عدم قابليته المتناثرة للترجمة». وقد ذهب الكاتب إلى الإعلان الصريح عن عجز الترجمة محاكاة النص الأصلي حيث نادى ب «التخلي عن حلم الترجمة المثالية»[9] طالما كانت المهمة الأسمى للترجمة هي «تقريب الكاتب من القارئ[10] حسب استشهاده بكلام الفيلسوف اللاهوتي شلير ماخر.

(7) ندوة علمية عقدتها مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بمقر المؤسسة بطنجة بتاريخ 2020/02/26 بحضور مجموعة من الدكاترة المحليين والأجانب تحت عنوان الترجمة والتأويل. وقد تشرف الباحث بحضورها وسماع مداخلة السيد رئيس جامعة عبد الملك السعدي (سابقا، قبل وفاته بفيروس كرونا)

(8) بـدي إبنو: المدير العام للمعهد الأروبـــي للدراسات الإيبيستيمولوجية IESE

(9) ريكور، بول. عن الترجمة (ترجمة حسبن خمري). 2008. ص 45

(10) نفسه

ويخلص الكاتب أن لكل كلمة أكثر من معنى وهو ما يسمى بظاهرة التعدد الدلالي polysémie ليتساءل هل يجب ترجمة المعنى أم ترجمة الكلمات، إنها حيرة الترجمة؟ لينتهي بالقول أن الترجمة هي خيانة trahison créative de l'originale (ص66) والذي يذكرنا بالمثل الإيطالي الشهير: Traduttore, traditore والذي يعني «أيها المترجم أنت خائن».

وبما أن الأمانة في الترجمة هي العنصر الأهم والمتوخى والأساسي، فلم تكون هذه الأمانة؟ هل للغة النص ومبناه؟ أم لمقصوده ومعناه؟ وهل يتحقق لنا -ولو جدلا- الجمع بين الأمانة للمبنى والمعنى؟

وفي السياق نفسه، أشار د. عبد الحميد زاهيد في تقديمه لسلسلة الترجمة والمعرفة: ترجمة البلاغة القرآنية بين أسئلة الهوية وثقافة الاخر[11] إلى ما سماه «الاعجاز الترجمي» حيث قسم المؤلف هذا الاعجاز إلى قسمين. فأما الأول هو «إعجاز ذاتي» في نص القران نفسه (أصواته وتأليفه ولغته وأخباره وبلاغته). والقسم الثاني هو الاعجاز التبليغي. وهنا نقف جميعنا في حيرة متسائلين، لو فرضنا -مثلا- أن ترجمة القران بعيدة كل البعد عن الإعجاز وأنها «تصح وممكنة»، فهل نتوفر نحن -اليوم- على الالية والأدوات والكوادر المؤهلة لتحمل مشاق هذه المهمة؟

(11) زاهيد، عبدالحميد. ترجمة البلاغة القرآنية بين أسئلة الهوية وثقافة الاخـر. سلسلة الترجمة والمعرفة. إربد – الأردن. 2012. ص هـ.

أن ترجمة القران بعيدة كل البعد عن الإعجاز وأنها «تصح وممكنة»،

عن التساؤل الفارط يجيب السفير الألماني في الجزائر والمغرب -سابقا-، د. مراد هوفمان في كتابه الإسلام عام 2000 (2003) والذي يقول أنه «شفق» فيه على حال المسلمين من ناحية ندرة العلماء وقال: «يحق للعالم الإسلامي اليوم أن يخجل من قلة العلماء المؤهلين لإقامة حوار مع الغرب» (ص 74) ولعل صاحب هذه الورقة يضيف إلى ثلثة العلماء المذكورين، زمرة المترجمين الأكفاء المؤهلين إلى مجاراة الحضارات المعاصرة ثقافيا وعلميا على الأقل لإجراء الحوارات والمناظرات العلمية والدينية والثقافية لغاية التلاقح بين الحضارات والذي لابد من «الندية» العلمية والثقافية فيه وفتح

المجال أمام القارئ الأجنبي للاضطلاع على ما تحتويه دفتي القران الكريم على نحو صحيح خال من الأخطاء المبتذلة أو الساذجة. فلا بد من ترجمته ترجمة دقيقة للغاية. وذلك لا يتطلب فقط – حسب رأي الباحث الشخصي- عمل أفراد (ولو شهد لهم بالكفاءة) أو المؤسسات بل يتطلب الأمر «ترسانة» من العلماء والمفسرين والتراجم والهيئات والمؤسسات تعمل كلها مع بعضها البعض في حين أننا نعاني -كما سبق القول- من ندرة العلماء وفي شتى المجالات وهو رأي يشاطره أغلب العامة والمختصين مع د.هوفمان.

فالبرغم من وجود الكثير من الاجتهادات الفردية لمترجمين مسلمين أو غيرهم، أو المؤسساتية (كمجمع الملك فهد لترجمة القران في المدينة المنورة) لترجمة القران، فلازالت إلى اليوم تتخبط في غياهب التناقضات أحيانا والتيه أحيانا أخرى. فمثالا لا حصرا، تعد ترجمة بعض المصطلحات البدوية الخاصة بالعرب خاصة، حملا أثقل من جبال تهامة على كواهل المترجمين العرب منهم والأجانب حيث تكاد لا تجد لها مقابلا البتة في الثقافة المقابلة. ويضطر أغلب التراجم في هذه الحالة الى الاجتهادات الفردية التي قد تفضي إلى تشوه النص الأصلي مع الترجمة.

تعد ترجمة بعض المصطلحات البدوية الخاصة بالعرب خاصة، حملا أثقل من جبال تهامة على كواهل المترجمين العرب منهم والأجانب

بل وأخطر من ذلك يضيف الدكتور هوفمان والذي يعرض جانبا من جوانب نظرة الغرب الإزدرائية للعالم الإسلامي فهو يقول بأن هنالك قناعة تامة لدى الغرب بأن المرأة في العالم الإسلامي هي «مواطن من الدرجة الثانية... فهم مهمشات، مقموعات، محنطات أو مدفونات بالحياة»[12] وهم مقتنعين بأن القران يكرس هذه المرتبة وكل ذلك بسبب الترجمة. ويضيف المؤلف بأن هناك العديد من ترجمات القران أذكت ذلك التصور في ذهن الغرب ومنها ترجمة م. سفاري، لازاروس جولد شميدت، ماكس هنينج، بسل وتيجاني. فكل هذه الترجمات تكرس أنه، وبالنص القرآني المترجم، للرجال «سلطة» على النساء وأنهم «متفوقين على النساء وأعلى منهن»[13]. بل حتى

(12) هوفمان مراد. الإسلام عام 2000. 2003. ص 75

(13) نفسه. ص 76

محمد حميد الله –حسب رأي د.هوفمان يرى بأن «الرجال موجهين للنساء بينما حمزة بوبكر، ودنيس ماسون، واللجنة السعودية لترجمة القران – للرجال سلطة على النساء. ويقول صادق مازيغ بأن للرجال حق الإشراف على النساء.

هذا ليضيف الكاتب أن الفهم الخاطئ لمسألة القوامة (الآية 34 من سورة النساء) يعد نموذجا حيا وحقيقيا ل «كيفية تحوير فهم القران». ويتساءل الباحث هنا هل هذا «التحوير» جاء عن فهم خاطئ كما يقول الكاتب أم جاء مقصودا لخدمة «أجندات» معينة؟

هذا التساؤل وعلى الرغم من ضرورة طرحه فإن الإجابة عنه لا تجد مكانا لها بين دفتي هذه الورقة التي تعنى أساسا بإشكال ترجمة القران من الناحية الدلالية. وليس من ناحية أبعاد الترجمة أو الأهداف المتوخاة من أجلها ولا حتى من ناحية مدى توافقها مع العقائد الإسلامية الصريحة.

الحرص على إعطاء صورة مثالية عن مختلف التعاليم الإسلامية عبر ترجمتها إلى اللغات الأجنبية ترجمة حريصة وسليمة ودائمة التحديث

فالدعوة الإسلامية و»عالميتها» كما يقول الكثير من العلماء والمنظرين والمفكرين الاسلاميين تستوجب من معاشر المترجمين الحرص على إعطاء صورة مثالية عن مختلف التعاليم الإسلامية عبر ترجمتها إلى اللغات الأجنبية ترجمة حريصة وسليمة ودائمة التحديث ونضع هاهنا خطين تحت عبارة «دائمة التحديث». وبما أن القران هو دستور الإسلام والمسلمين الأول فالأولى والأجدر الحرص، كل الحرص، على ترجمته ترجمة لا تشوبها شائبة. ذلك أن الإسلام ومعاملاته، حسب إدريس العلوي العبدلاوي، «تضع روح التسامح والحس بالمواطنة الإنسانية فوق كل اعتبار»[14]. ويضرب الكاتب مثلا حيث يشير إلى «الدور الذي اضطع[15] به يهود المغرب بفاس، العاصمة الروحية للملكة المغربية حيث أقاموا –في ظل الإسلام- علاقات موصولة بمراكز التلمود في العالم باركها ملوك المغرب طوال ألف عام. كما تساكنوا حول جامعة القرويين التي ضمت طلبة من أوروبا منذ القرن الرابع هجري في

(14) العبدلاوي، إدريس العلوي. سلسلة العولمة والهوية. أسس الحوار بين الأديـان. أكاديمية المملكة المغربية. 1997.

(15) ربـما يقصد الكاتب «اضطلع» عوض اضطع، ص

طليعتهم جربير "Gerber" الذي شغل منذ عام 999 ميلادية كرسي البابوية في الفاتيكان. أما المسيحيون فإن سلطان المغرب، المولى إسماعيل -كما أجمع على ذلك مؤرخو المسيحية- أكبر حماة طائفة الفرنسيسكان franciscains التي خولها امتيازات لم تجرؤ أية أمة مسيحية على المطالبة لها بها (...) كما سعى الإسلام لتوحيد البشرية على ما فيه صلاحها وتدعوا تعاليمه وتشريعاته إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة. ويجادل المخالفين بالتي هي أحسن. فلا ضغط على الحريات، ولا إكراه في الدين، ولا فرض للأفكار والمعتقدات» ص 134-135.

إمكانية الترجمة» من الناحية الوظيفية إذا توافق وتعادل نص الانطلاق مع نص الوصول من ناحية «تعادل التأثير»

فالإسلام، حسب العبدلاوي، هو لب وروح التسامح وجوهر الإنسانية المكنون. ويقول الكاتب بأن كلمة «السلام» وردت في أكثر من مائة اية من آيات كتاب الله الكريم في حين لم تذكر كلمة الحرب ومشتقاتها إلا في ست آيات فقط».[16]

فبين استحالة ترجمة القران والإمكان، ككتاب مقدس بالنسبة للمسلمين، أو علمي بالنسبة لغيرهم، يذهب دانييل جيل في كتابه الترجمة، فهمها وتعلمها إلى القول «بإمكانية الترجمة»[17] من الناحية الوظيفية إذا توافق وتعادل نص الانطلاق مع نص الوصول من ناحية «تعادل التأثير»[18]. لكن، هل تتعادل حقا قيمة النص القرآني الأصلي مع نسخته المترجمة؟ التساؤل هذا مهم بما كان في حالة ترجمة القران لأننا، بطريقة أو بأخرى، سنطرح نفس التساؤل من ناحية تعادل وتكافؤ المعنى والتأثير حتى نحسم إن كانت ترجمته ناجحة «وظيفيا» على الأقل.

(16) نفسه، ص 135

(17) جيل، دانييل. الترجمة، فهمها وتعلمها.

(18) نفسه. ويقصد الكاتب بعبارة «تعادل التأثير» معرفة إن كان القراء أثناء قراءتهم يشعرون بالأحاسيس نفسها، ويفهمون أو يدركون المعلومات ذاتـها، ويفسرون بالطريقة عينها، وإن كانت لديهم ردود الأفعال نفسها. ص 75